

تاريخ النزول وأثره في التفسير

"عند ابن عاشور"

د. مفتاح علي محسن*

المقدمة

إن من نعمه الله ﷻ، وحكمته، وإتقان صنعه، ولطفه بعباده؛ أن خلق الزمان والمكان، وقرن بهما كل ما سواه؛ فكل الموجودات لا تنفك، ولا تستغني عنهما؛ ذلك أنهما ركيزتا الوجود، ولا يمكن بل يستحيل فهم الموجودات وإدراكها، أو حتى تصورهما دون معرفة القرائن حفت زمانها، وأحاطت مكانها؛ ولهذا كان لتاريخ الحدث الواصف لزمانه ومكانه أهمية كبيرة في تمييزه وإدراكه، وأثر عظيم في فهمه وتفسيره.

ومن كمال نعمته -تبارك وتعالى- وإحسانه لعباده أن أرسل إليهم رسلاً؛ إيقاظاً لفطرة التوحيد السليمة التي أودعها فيهم، وإرشاداً للسبيل الذي خلقهم له، وارتضاه لهم، وتحذيراً وإنقاذاً من الزلل والوقوع في مزالق الانحراف وسبل الضلال، ومن نعمه التي لا تنقطع أن أيد رسله -عليهم السلام- بالوحي والمعجزات؛ حجة وهداية وإصلاحاً وثبیتاً، ومن تمام نعمته -عز وجل- أن كانت خاتمة كتبه خالدة باقية أبد الدهر؛ زاخرة بالمعاني والحكم والدلالات والمقاصد والغايات؛ التي تنبه الفطرة، وترشد العقل والقلب إلى الصراط المستقيم والمنهج السليم إلى صلاح الدنيا وفلاح الآخرة .

إن المتأمل في حضارة الإسلام وراقيا في جميع نواحي الحياة، وريادتها في مجالاتها المتعددة، وابتكاراتها في علومها المتنوعة؛ ليرى بجلاء أن مولدها وبداية انبعاثها وأوج قوتها ووقه زهوها؛ اقترن بزمان نزول معينها الفياض، ونبعها الصافي، ورافدها الزاخر؛ ألا وهو القرآن الكريم، منه نهلت عطاءها، واستمدت قوتها وصلابتها، وعليه أسست بنيان

* عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية/ الجامعة الأسمرية

(M.Mohsen@asmarya.edu.ly)

حضارتها، وأقامت صرح ريادتها الشاخص؛ حتى خضعت لها الأمم، وتماهت فيها الأجناس والأعراق، فعمت المعمورة؛ فضممتها تحت لواء القرآن، وشملت الإنسانية؛ فاحتوتها بقيمه السامية، وما كان ذلك ليكون؛ لولا الانكباب رعاة ورعية، علماء وعامة على القرآن الكريم، تلاوة وتدبرا، والانقياد والخضوع لتعاليمه، والإقرار والعمل بأحكامه، والبحث والتدقيق والتأليف والاجتهاد في علومه ومعارفه.

ولا ريب أن استدراك ما نحن فيه اليوم من ضعف وتأخر؛ بل وتخلف عن ركب الأمم؛ غمر كل مجالات حياتنا، وغطى جميع النواحي والأصعدة؛ لا يكون إلا بالتوبة والرجوع والعود والافتداء بذاك الزمن التليد والعصر الفريد، والتأمل والتحصيص والبحث والتدقيق في القرائن التي حفته، والظروف التي رافقته، والعوامل التي حفزت أهله على التفوق، ودفعت بهم نحو الحضارة، وأخذت بأيديهم إلى الريادة، وهاماتهم إلى القيادة؛ يقول الإمام مالك-رحمه الله:- "ولا يصلح آخر هذه الأمة؛ إلا ما أصلح أولها"⁽¹⁾.

ولما كان القرآن الكريم هو نبع تلك الحضارة الإسلامية العظيمة الرائدة؛ فإنه مما لا شك فيه أن إدراك غاياته، وفهم دلالاته وكشف معانيها؛ هو النهج المشترك والطريق الجامع بين السلف والخلف للوصول إلى الريادة والقيادة، ولما كان إدراك مقاصد وغايات القرآن الكريم، وفهم دلالاته ومعانيه؛ يرتكز على الإحاطة بظروف زمان نزوله، وقرائن المكان؛ كان البحث فيها وتوظيفها؛ طريقا إلى تدبر مقاصده، وكشف معانيه، وفهم دلالاته.

وهذا لا يعني حصر معانيه في تلك الأزمنة، وقصر مقاصده على تيك الوقائع؛ وإنما عدها إسوة وأتمودجا لفهم دلالاته المتجددة المتولدة، وأساسا ومرتكزا لمعرفة معانيه المتنوعة المتفرعة، واعتمادها رافدا لإدراك مقاصده العامة، وفهم غاياته السامية، واقتفاؤها طريقا إلى كشف أسراره، وبيان إعجازه، بها تتميز التأويلات البعيدة الدخيلة، وتستبين المناهج المنحرفة الضالة؛ فتكشف الأفهام السقيمة وأهلها، وتنعري الدعاوى الباطلة وأهدافها؛ يقول الحق-تبارك وتعالى:- ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض: 444/2.

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾.

وليس المقصود بعلم تاريخ النزول دراسة ترتيب الآيات الكريمة والسور حسب تاريخ نزولها؛ فذاك خلاف ما اتفق عليه السلف؛ وإنما إدراك معانيها، وتدبر التناسب في سياقاتها، وتلاحم أغراضها، واتحاد غاياتها على ترتيبها التوقيفي؛ على اختلاف، أزمنة نزولها وتباينها.

ولا يقصد به دراسة المكي والمدني في القرآن الكريم؛ وإن كان يشملها؛ إنما هو أطف وأدق؛ فيدخل فيه المتقدم والمتأخر في كل منهما على حدة.

وليس غرضه البحث في الأحداث والوقائع التاريخية للأمم السابقة، والمقارنة لنزول القرآن الكريم كالقصص والغزوات؛ فالقرآن الكريم؛ وإن أشار إليها كثيرا على الإجمال والتفصيل؛ إلا أنه كتاب هداية؛ غايته الدعوة إلى الله، وإصلاح الدنيا والآخرة، لا تسجيل الأيام والوقائع وتاريخ الأمم؛ يقتصر ويكتفي منها بمشاهد من منج القدوة، ويقف عند إشارات على موضع العبرة، ودلالات في محل الموعظة؛ وإذا كان علم تاريخ التشريع يبحث في تاريخ الأحكام التي هي قسم منه؛ فإن علم تاريخ النزول في القرآن الكريم أوسع وأعم؛ فيشمل دراسة تاريخ النزول لكل آيات القرآن الكريم؛ بما فيها آيات الأحكام؛ وإن كان لا يتطلب لكل آية من آيات الذكر الحكيم سبب نزول؛ فإنه لا مرأى في أن لكل آية تاريخ نزول؛ يتطلب البحث فيه وتعيينه.

ونخلص من كل هذه المقارنات والمفارقات والمميزات إلى أن علم تاريخ النزول هو: العلم الذي يبحث في تاريخ نزول الآيات الكريمة والسور؛ على ترتيبها التوقيفي: (زمانها ومكانها، وفيمن نزلت، والقرائن التي حفت النزول)، وتوظيفها لفهم الدلالات وكشف المعاني، وإدراك الغايات والمقاصد.

(1) سورة آل عمران، الآية: (7).

-أهمية دراسة علم تاريخ النزول:

إن نزول القرآن الكريم منجماً على مدى بضع وعشرين سنة؛ فيه حكم عظيمة، وله أثر كبير، وإن تتبع واستقراء الظروف التي اكتنفت نزول آياته وسوره، وتعيينها، والبحث فيها وتدبرها، والتأمل في مشاهدتها؛ له فوائد عظيمة القيمة بالغة الأثر؛ تعين على فهم أسرارها واستنباط معانيه ومقاصده؛ بل إنه قد يتوقف عليها فهمها، واستنباط أحكامها على مراده - سبحانه وتعالى- وأن إهمالها وإغفالها أو إسقاطها؛ يجر إلى الزلل، ويوقع في الانحراف عن المنهج القويم في تدبره، والطريق المستقيم لكشف معانيه، والفهم السليم لمقاصده وغاياته؛ فمن فوائد الإحاطة بعلم تاريخ النزول:

(1)- الامتثال والطاعة والانقياد لأمره - سبحانه وتعالى- في نهج الطريق الأمثل في تدبر كتابه الكريم والتفكير فيه؛ قال -تعالى-: ﴿ وَقَرَأْنَا فَرَقَنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾⁽¹⁾، وظاهر جلي قوله: ﴿ فَرَقَنَاهُ ﴾، أنه على أزمنة، وقوله: ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾، أي: مهل وبطء، وطول مدة.

(2)- يتوقف عليه فهم وإثبات بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم؛ كإعجاز الغيبي والعلمي؛ إذ لا يمكن إثبات الإعجاز الغيبي بأقسامه الثلاثة: (الماضي والحاضر والمستقبل)، إلا بالجزم والقطع بتاريخ نزول الآية محل الإعجاز؛ ففي الإعجاز الغيبي المستقبل والحاضر؛ ملزم إثبات نزولها قبل حدوثهما؛ وفي الإعجاز الغيبي الماضي يتطلب إثبات أن لا اطلاع له -صلى الله عليه وسلم- على كتب اليهود والنصارى في ذلك الزمن عند نزوله، وأما الإعجاز العلمي فلا سبيل لإثبات الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم؛ إلا بإثبات أن الآيات محل تلك الحقائق قد نزلت قبل اكتشافها.

(3)- هو طريق في الدعوة إلى الله وذلك من وجهين: الأول: بإثبات الإعجاز الغيبي والعلمي والتشريعي، والثاني: أن تتبع تاريخ نزول آيات وسور وسياقات القرآن الكريم؛ لا ينفك عن سيرة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-؛ بل هو ملازم لها، وفي هذا التلازم والتآلف والارتباط والتلاحم والانسجام بيان لمعالم طريق الدعوة إلى الله، والتدرج فيها

(1) سورة الإسراء، الآية: (106).

على أسس منهج النبوة؛ فيتعلم الداعية الأولويات والضروريات، ومعالجة المحن والشدائد والعقبات، وتلافي تبعاتها، وتلقف الفرص، وانتهاز الجولات، واستثمار نتائجها.

(4)- أنه رافد لا غنى عنه لعلوم كثيرة ومتنوعة؛ كتاريخ التشريع والسيرة والفقہ والحديث والتوحيد، وعلوم القرآن كالنسخ والتخصيص والتقييد وسبب النزول وغيرها من العلوم الأخرى.

(5)- أنه معين على تمييز أسباب النزول التي اقترنت بنزول الآيات، ويتوقف عليها فهم المراد والغاية، كملك التي تفسر المشكل، وتبين المجمل، وتعين الناسخ والمخصص، وهو حجة في رد الروايات الموضوعة الباطلة فيها، واعتماد الصحيحة منها؛ وذلك من جهة اتفاقها وتناسبها، أو مخالفتها وتعارضها مع تاريخ نزول الآيات الكريمة.

(6)- معين على فهم النصوص فهما صحيحا، ودفع التعارض الظاهر بينها؛ فبمعرفته وتعيينه وتحديدته يفصل بين الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين؛ إذ يشترط فيهما تأخر الناسخ والمبين.

(7)- قد تخفى المناسبة بين الآيات والسياقات والسور، ولا يظهر اتساق سياقاتها وتلاحمها، وترابط أغراضها وتآلفها إلا بمعرفته، ولا ينبغي توافق مقاصدها وانسجامها، ووحدة غاياتها، واتفاق أهدافها إلا بالإحاطة بالقرائن التي حفتها، والظروف التي اكتنفتها.

(8)- له أهمية كبيرة وأثر بالغ في دراسة التفسير الموضوعي؛ لأن جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد؛ لا يظهر ترابطها، ولا تجلي الحكم والمقاصد من أحكامها؛ كأسلوب الشارع الحكيم في التدرج في التشريع، وتربية الأمة مثلاً؛ إلا بمعرفة تاريخ النزول، وتعيين المتقدم والمتأخر.

ولما لهذه الفوائد من أهمية وأثر بالغين في فهم مراده -عز وجل- من كلامه؛ اخترت البحث في هذا الجانب (علم تاريخ النزول)، خاصة وأنه لم ينل حظه من العلماء والدارسين المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين كغيره من العلوم؛ وإنما تناثرت مباحثه، وتداخلت مسأله في علوم القرآن؛ كأسباب النزول، والمكي والمدني، وعلوم الفقہ كتاريخ التشريع والحديث والسيرة والتاريخ.

-مصادره "وسائل تحصيله":

الباحث في تاريخ نزول القرآن الكريم لا غنى له عن معرفة عدة علوم لا بد له من تحصيلها وفهمها، ثم توظيف هذه الملكة في الاستقراء والتحليل، فالمقارنة ثم الترجيح بين روايات تواريخ نزول الآيات الكريمة، وكشف معانيها، وفهم دلالاتها، واستنباط مقاصدها، وإدراك غاياتها، وأشهر هذه العلوم هي: (السيرة النبوية، وعلم الحديث، والجرح والتعديل، وأسباب النزول، والنسخ، والعموم والخصوص، والإجمال والبيان، وعلم المناسبة، ومقاصد القرآن، والتفسير الموضوعي، وعلم التاريخ).

-ابن عاشور وعلم تاريخ النزول:

أولى العلامة محمد الطاهر ابن عاشور -رحمه الله- تاريخ النزول في تفسيره التحرير والتنوير عناية بالغة، واهتم به تمام الاهتمام؛ فكلها شرع في تفسير آية من آيات القرآن الكريم جاء فيها تاريخ نزول؛ نقله وناقشه ومحص فيه ودقق واختار ورجح واستبعد ورد؛ ثم وظف كل ذلك في كشف المعاني، واستنباط المقاصد والأحكام، وبيان المناسبات، ودفع الدخيل والموضوع؛ حتى صار تاريخ النزول عنده مؤشرا في التمييز والفصل، كاشفا للمعنى، طريقا لفهم المراد، وهو في بحثه في هذا العلم، وتوظيفه لخدمة تفسير كتاب الله، يسير على نهج يرتكز على أسس، ويقوم على قواعد وضوابط؛ رسمت منهجه الذي تيز به عن غيره من المفسرين.

-منهج ابن عاشور في علم تاريخ النزول:

بنى ابن عاشور -رحمه الله- منهجه في البحث في علم تاريخ النزول، على ثلاثة محاور:

(1) استقراء تاريخ النزول من مصادر اصطفاها؛ لتكون مستقاه في البحث فيه.

(2) أسس سار عليها في تعيين تاريخ النزول.

(3) توظيف تاريخ النزول في كشف المعنى، وفهم المراد.

(1)-أما المصادر التي اصطفاها، واعتمد عليها في استقراء تاريخ النزول، والإحاطة بالأحداث والوقائع التي صاحبته، والظروف والقرائن التي حفته؛ فقد كانت متنوعة؛ لكنها امتازت بالضبط والدقة، ويمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أ- كتب السيرة والتاريخ: أشار إليها في مواضع كثيرة من تفسيره، ومن هذه الكتب: سيرة ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام، والمغازي للواقدي، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ ابن عساكر، وتاريخ ابن الطبري، وتاريخ الخطيب البغدادي.

ب- كتب السنة: هي المصدر الأساس الذي اعتمد عليه؛ فكثيرا ما كان يختار ما استقره، ويرححه على غيره؛ كصحيح البخاري ومسلم، وسنن النسائي، وأبي داود، وابن ماجه والبيهقي، وصحيح ابن خزيمة، وابن حبان، ومستدرک الحاكم وغيرها.

ج- التفاسير: كانت متنوعة ومتعددة؛ كجامع البيان لابن جرير الطبري، ومعالم التنزيل للبخاري، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي، والكشاف للزمخشري، والكشف والبيان للثعلبي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وغيرها.

د- علوم القرآن: ومنها الإتيان للسيوطي، وأسباب النزول للواحدي.

فهذه أهم المصادر التي استقى منها استقراء تواريخ نزول الآيات الكريمة، وهو في نقله لما استقره منها لم يكن مجرد ناقل؛ بل كان ينقل بعين الناقد المدقق البصير؛ فيقرر ويختار، ويرد ويستبعد، ويرحح ويوظف من الأقوال والآراء ما يتوافق وأغراض الآيات وسياقاتها، ويتفق وأهدافها، وينسجم مع غاياتها، ويستبعد الغريب، ويرد الدخيل الذي يتعارض مع دلالاتها، ويصادم معانيها ومقاصدها، ففي بحثه في تاريخ نزول آية المباهلة في قوله -تعالى-: ﴿فَنَحَا جَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (1)، التي نزلت في وفد نجران، ذكر أن ابن إسحاق صاحب السيرة وهم أنها نزلت عام الوفود سنة تسع للهجرة، وتبعه ابن هشام في سيرته، والواحدي (2)، مشيرا إلى أن الإجماع على أن سورة آل عمران الواردة فيها الآية من أوائل السور المدنية نزولا، وأن نجران قد وفدوا

(1) سورة آل عمران، الآية: (61).

(2) نقله ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق: 225/2، والواحدي في أسباب النزول: (107).

على النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل عام الوفود بكثير، وإن اشترك مع غيره من الوفود في وصفه بالوفد؛ فهو متقدم عليه في التاريخ⁽¹⁾.

وفي بحثه في تاريخ نزول سورة القدر، ذكر أن الجمهور على أنها مكية، وذهب الضحاك إلى أنها مدنية، وتبعه الواقدي والقرطبي⁽²⁾؛ إلا أن ابن عاشور ربح أن تكون مدنية؛ لاشتمالها الترغيب في إحياء ليلة القدر، وقد كان فرض رمضان بعد الهجرة⁽³⁾.

وهو في نقله من هذه المصادر محقق مدقق متأمل فيما ينقل، ففي مستهل تفسيره لسورة النور أشار إلى أن الإجماع على أنها مدنية؛ مشيراً إلى أنه جاء في بعض نسخ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي أن قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾⁽⁴⁾، مكي⁽⁵⁾، وتبعه الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي⁽⁶⁾، والألوسي في روح البيان⁽⁷⁾؛ منها على أن القرطبي قال في أول تفسيره لسورة النور: "مدنية بالإجماع"⁽⁸⁾؛ مبيناً أن ما ذهب إليه الخفاجي والألوسي؛ سببه تحريف في بعض نسخ القرطبي؛ فقد وهموا أنه قال: "مكية"، والصواب أنه قال: "محكمة" كما وردت في بعض النسخ⁽⁹⁾، ومما يؤيد هذا أنها جاءت في تفسير المحرر الوجيز لابن

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور: 146/3.

(2) الإتيقان، للسيوطي: 64/1، وأحكام القرآن، للقرطبي: 390/22.

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 455/30.

(4) سورة النور، الآية: (58).

(5) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 330/15.

(6) عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي للشهاب الخفاجي: (حاشية الشهاب): 350/6.

(7) روح المعاني، للألوسي: 74/18.

(8) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 100/15.

(9) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 330/15، (عن مخطوط نسخة المكتبة الظاهرية بمكتبة الأسد).

عطية بلفظ: "وهي محكمة"⁽¹⁾؛ وهذا يظهر نفسه العميق؛ ودقة تحقيقه فيما ينقل من المصادر التي اصطفاها واعتمدها؛ لتكون رافدا له في تفسيره⁽²⁾.

(2)- وأما الأسس التي سار عليها في تعيين تاريخ النزول، فقد نهج في تعيين وضبط تاريخ النزول طريقتين: الأولى: المقارنة بين أقوال وآراء العلماء ثم الجمع والتوفيق، أو الاختيار والترجيح، وأحيانا الرد والاستبعاد. الثاني: الاجتهاد والاستنباط .
-المقارنة بين أقوال العلماء:

بعد عرضه للأقوال والآراء؛ فإن كان بالإمكان الجمع والتوفيق بينها وفق وجمع، وإلا انتخب واختار بمبرح، أو ضعف واستبعد بمعارض، فما كان منسجما مع السياق والمعنى والمقصد اختاره ورجحه، وما كان دخيلا على السياق بعيدا عن المعاني لا يتوافق مع المقصد استبعده، وأما ما كان معارضا مصادما؛ فضعفه ورده .

أولاً: الجمع والتوفيق:

إذا تعددت الروايات في سبب النزول، وصحت وتوافقت، أمكن الجمع بينها، وكانت تفسيراً للآية، وإذا تعذر الجمع بينها والتوفيق حملت على تكرار النزول. أما تعدد تواريخ النزول فلا يمكن الجمع بينها؛ إلا بالحمل على تكرار النزول، أو التوقف، ولا شك أن المواطن التي توقف فيها العلماء عن الجزم بتعيين تاريخ النزول باب من أبواب البحث العلمي المبتكر أمام طلبة العلم؛ للبحث والاستقراء والتحقيق والتدقيق والتحليل ثم الاستنباط؛ وقد أنكر العلماء القول بتكرار النزول، وقال به بعض المحققين؛ كابن الحصار وابن كثير والزرکشي والسيوطي⁽³⁾، فهؤلاء قالوا: إن الحكمة فيه والفائدة هي تعظيم المنزل المتكرر، أو التذكير بفضله، أو التأكيد، أو التنبيه عليه، وشد النظر إليه، ولعل الحكمة مع ما قالوا تكثير المعاني؛ وتنوع الأحكام والدلالات، ولقد أشار ابن عاشور -رحمه الله- في مقدمة تفسيره إلى أن أسباب النزول تنوعت إلى خمسة أقسام:

1- ما لا غنى عنه، ويتوقف عليه فهم المراد.

(1) المحرر الوجيز، لابن عطية: 407/6.

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 139/18 .

(3) الإتيقان، للسيوطي: 102/1.

- 2- ما يبين المجلد أو يفسر المبهم.
 - 3- ما يمكن الجمع بينها من حوادث تسببت عنها تشريعات؛ لكنها لا تبين مجملاً، أو تفسر مبهماً، ولا تخالف مدلول الآية.
 - 4- حوادث من الأحوال التي تشير إليها الآية، سابقة أو لاحقة للنزول، وفي الآيات ما يناسب معانيها.
 - 5- حوادث تختص بشخص أو حادثة؛ لكن تكثر أمثالها، وتدخل في المعنى، وتصح أن تكون تفسيراً⁽¹⁾، وهي باب من أبواب البحث والتحقيق أمام طلبة العلم.
- وابن عاشور -رحمه الله- في بحثه في تعدد تواريخ النزول دقيق النقل عميق التحقيق، فإما أن يرحم ويختار، أو يستبعد ويرد، وأحياناً يتوقف أو يجمع أو يتأول؛ بناء على ما استقر عليه سببه في البحث والتحقيق والتحليل؛ وهو لا يرى القول بتكرار النزول؛ فقد قال رداً على من يرى أن سورة الفاتحة سميت بالثاني؛ لأنها ثنيت في النزول: "وهذا قول بعيد جداً، وتكرر النزول لا يعتبر قائله"⁽²⁾.

فن أمثلة ما توقف فيه ولم يرحم ما أورده عند تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾⁽³⁾؛ حيث أشار إلى اختلاف العلماء في تعيين تاريخ نزولها؛ مبيناً أن من قال: إنها نزلت بمكة فسر القارعة بالحوادث المؤلمة من الجوع والمرض؛ ومن قال: نزلت بالمدينة فسر القارعة بسرية من سرايا المسلمين تخرج فتهدد قريش ومن حولهم، فقد أورد القولين وتوقف في ترجيح أو استبعاد أو رد أحدهما أو تأوله⁽⁴⁾، وكذا عند تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾⁽⁵⁾، فقد أشار إلى أن النهي الحاصل في الآية؛ إما أن يكون الوعيد الوارد في الآية التي قبلها في قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 46/1.

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 135/1.

(3) سورة الرعد، الآية: (31).

(4) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 146/13.

(5) سورة المجادلة، الآية: (8).

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ⁽¹⁾؛ لأن الوعيد يقتضي النهي؛ وعليه تكون الآيات في هذا السياق نزلت معاً، أو أن يكون النهي المشار إليه هو نهيه -صلى الله عليه وسلم- عن النجوى صدر البعثة في قوله -عليه الصلاة والسلام-: "لا يتناجى اثنان؛ دون ثالث"⁽²⁾، وتكون هذه الآية نزلت بعد الآية التي قبلها بمدّة؛ أي: إما أن تكون الآيات نزلت معاً في تاريخ واحد، أو متفرقة على تاريخين، ولم يرحح أحدهما على الآخر⁽³⁾.

ومن أمثلة ما جمع فيه بين الأقوال المتعددة في تاريخ نزول الآيات ما عرضه من أقوال في تاريخ نزول سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾⁽⁴⁾؛ فابن عباس يرى أنها نزلت في منصرفه -صلى الله عليه وسلم- من خيبر سنة سبع للهجرة، وقال قتادة: نزلت قبل وفاته -صلى الله عليه وسلم- بسنتين، وقال الواحدي: نزلت في منصرفه -صلى الله عليه وسلم- من حنين عام الوفود سنة تسع للهجرة⁽⁵⁾، ويكون الفتح هنا قد مضى و(إذا) زائدة لمجرد التوقيت، وقال ابن عمر -رضي الله عنهما-: "عاش بعدها -صلى الله عليه وسلم- نحو ثلاثة أشهر"، منبها على أن الفتح المشار إليه في السورة؛ هو فتح مكة، وأن الروايات تضافرت على أن الآية إيحاء إلى قرب أجله -صلى الله عليه وسلم-، قال: "وليس في ذلك ما يرحح أحد الأقوال في وقت نزولها"⁽⁶⁾.

ومن أمثلة ما تأوله وحمله على معنى آخر في تعدد تواريخ النزول ما ذكره عند تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا فَوْقَهَا﴾⁽⁷⁾؛ حيث ذكر أن الواحدي روى عن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة لما نزل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ

(1) سورة المجادلة، الآية: (7).

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب: البر والإحسان، باب: الصحة والمجالسة، ذكر الزجر عن تناجى المسلمين بحضرة ثالث معهما، حديث رقم: (581).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 28/28.

(4) سورة النصر، الآية: (1).

(5) أسباب النزول، للواحدي، ص: 497.

(6) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 558/30.

(7) سورة البقرة، الآية: (26).

منه⁽¹⁾، وقوله -تعالى-: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾، عجزوا عن التحدي؛ فقالوا: أرايتم أي شيء يصنع بهذا؛ فنزلت الآية؛ منها على أن هذه الرواية أوفق للسياق، ثم أورد رواية الحسن عن قتادة أنها نزلت في اليهود؛ لما سخروا من ذكر الذباب والعنكبوت في القرآن⁽³⁾؛ منها على أن هذا موافق لكون السورة مدنية، قال: "والوجه أن نجتمع بين الروايتين، ونبين ما انطوتا عليه؛ بأن المشركين كانوا يفرعون إلى يهود يثرب؛ خاصة بعد أن هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم-"، فلقد جمع ابن عاشور بين السببين؛ مع الافتراق الزمني بينهما بتأول أحدهما بما يتوافق مع الآخر⁽⁴⁾.

ثانيا: الترجيح والاختيار:

يعرض ابن عاشور -رحمه الله- أقوال العلماء؛ فيختار ويرجح ما يراه منسجما مع سياق ومعاني الآيات ومقاصدها، وهو في اختياره وترجيحه يسير وفق ضوابط اعتمدها لتكون معيارا في الانتخاب والترجيح؛ فكان يختار بمرجحات منها: المناسبة، والمعنى، والمقصد، والحديث، وصحة الرواية، وغيرها من المرجحات، فما رجحه بالمناسبة والسياق ما ذكره في تاريخ نزول قوله -تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾⁽⁵⁾؛ حيث أشار إلى أن الواحدي روى أنها نزلت في سرية عبد الله بن جحش التي أرسلها النبي -صلى الله عليه وسلم- لاعتراض عير لقريش في الطائف، وكان عليها عمرو بن الحضرمي؛ فتلقوها ببطن نخلة في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة؛ فقتل الحضرمي، وأسر من معه، وغنم المسلمون العير؛ فعظم ذلك على قريش؛ فقالوا استحل محمد الشهر الحرام، وكان هذا في أول رجب، وظنوه جمادى الآخرة، فقيل إنه -صلى الله عليه وسلم-

(1) سورة الحج، الآية: (73).

(2) سورة العنكبوت، الآية: (41).

(3) أسباب النزول، للواحدي: ص: 26، 27.

(4) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 358/1.

(5) سورة البقرة، الآية: (217).

رد الغنيمة والأسيرين، وقيل رد الأسيرين فقط⁽¹⁾، وعقب ابن عاشور -رحمه الله- أنه إذا صحت الرواية؛ تكون هذه الآية نزلت قبل قوله -تعالى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾⁽³⁾ بمدة طويلة، ولما نزلت الآيتان وضعت قبلها بتوقيف خاص، مشيراً إلى أن نظائره كثيرة في القرآن الكريم، لكنه رجع أن تكون الآية نزلت في الحديبية، منها على أن قوله -تعالى-: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يناسب أن تكون الآية نزلت في الحديبية؛ فتكون تكلمة وتأكيذا لما قبلها، وهو قوله -تعالى-: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

ومما رجحه بالحديث أو السنة ما اختاره بعد عرضه لأقوال العلماء في تاريخ نزول قوله -تعالى-: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁽⁶⁾، فجاهد والضحاك والطبري والقرطبي⁽⁷⁾، جعلوها في فتح مكة، وجعلها ابن عطية⁽⁸⁾ يوم عرفة في حجة الوداع؛ رواية عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-⁽⁹⁾، واختار ابن عاشور -رحمه الله- يوم عرفة، قال: "وهو الأصح"؛ مبيناً أن قوله -صلى الله عليه

(1) أسباب النزول، للواحي، ص: 71، 72.

(2) سورة البقرة، الآية: (216).

(3) سورة البقرة، الآية: (190).

(4) سورة البقرة، الآية: (194).

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 322/2.

(6) سورة المائدة، الآية: (3).

(7) جامع البيان، لابن جرير الطبري: 82/8، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 293/7.

(8) المحرر الوجيز، لابن عطية: 103/3.

(9) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان: (88/8)، عن عيسى بن حارثة الأنصاري، قال: كما جلوسا في الديوان، فقال لنا نصراني: يا أهل الإسلام: لقد نزلت عليكم آية لو نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم وتلك الساعة عيداً ما بقي منا اثنان: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾، فلم يجبه أحد منا فلقيت محمد بن كعب القرظي، فسألته عن ذلك؛ فقال: ألا رددتم عليه؟ فقال: قال عمر بن الخطاب: أنزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو واقف على الجبل يوم عرفة فلا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقي منهم أحد".

وسلم:- "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَسَّ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ؛ ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاورون من أَعْمَالِكُمْ فاحذروا"⁽¹⁾، يؤيد أن تكون نزلت يوم عرفة⁽²⁾.
ومما رحمه بالمعنى - ما عرضه في تاريخ نزول قوله -تعالى:- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾⁽³⁾؛ حيث أشار إلى أن ورودها في سورة المائدة، وهي من آخر السور نزول معضل؛ لأنه -صلى الله عليه وسلم- حينها قد بلغ الشريعة؛ فهي إما نزلت في سبب خاص اقتضى إعادة تثبيت قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أنها نزلت قبل السورة؛ ثم ألحقت بها، وهو ما جاء في روايات في سبب نزولها؛ ذكرها الطبري والفخر الرازي⁽⁴⁾، حيث أشار ابن عاشور إلى أن الفخر الرازي استبعد هذه الروايات، ورجح أن تحمل على مكر اليهود والنصارى؛ لأنه الأنسب لما قبلها وما بعدها؛ وهو ما اختاره ابن عاشور -رحمه الله- مؤكداً أنه يتعين حملها على سبب خاص؛ وهو تثبيت قلب النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد تقدمها قوله -تعالى:- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾⁽⁵⁾، وهو في وصف حال المنافقين، فجاء قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ على وتيرتها في وصف حال أهل الكتاب، والفريقان متظاهران عليه -صلى الله عليه وسلم-

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة -جماع أبواب غزوة تبوك- باب: ما جاء في نعي النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه، حديث رقم: (2179).

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 100/6.

(3) سورة المائدة، الآية: (67).

(4) أورد ابن جرير الطبري في جامع البيان: (570/8) روايتين في سبب نزولها: الأولى: أنها نزلت بسبب أعرابي هم بقتل النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فكفاه الله إياه. والثانية: أنه كان يخاف قريش؛ فنزلت أماناً له منهم، وأورد الفخر الرازي في مفاتيح الغيب: (51/12) روايات في سبب نزولها: في قصة الرجيم، وفي استهزاء اليهود بالدين لما نزلت آية تخيير أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمر زيد وزينب -رضي الله عنهما- في ضيق النبي -صلى الله عليه وسلم- ذرعا بتكذيب اليهود والنصارى ومشركي العرب وخوفه منهم في أنه -صلى الله عليه وسلم- كان قبل الهجرة يجاهر ببعض القرآن، ويخفي بعضه إشفاقاً من تسرع المشركين إليه، وإلى أصحابه؛ فلما أعز الله الإسلام أمره أن يترك الخوف.

(5) سورة المائدة، الآية: (41).

وسلم- فالأول مستتر، والثاني مجاهر؛ فعاد الخطاب للنبي ثانية تثبيتاً لقلبه، والدوام على التبليغ، وعدم الاكتراث بالطاعنين⁽¹⁾.

ومما رجحه اعتماداً على صحة الرواية ما اختاره في تاريخ نزول قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽²⁾، فقد ذكر أنه من غريب التفسير أنها نزلت في اليهود؛ قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- إلتحق بأرض الشام؛ فإنها أرض الأنبياء؛ فصدقهم؛ فغزا غزوة تبوك، ولما بلغ الشام نزلت هذه الآية، مشيراً إلى أن فريقاً من العلماء جعلوا الآية مدنية؛ اعتماداً على هذه الرواية؛ لكن ابن عاشور -رحمه الله- نبه على أن هذه الرواية باطلة لوجهين: الأول: أن الصحيح في سبب غزوة تبوك غير هذه الرواية⁽³⁾، والثاني: أن سورة الإسراء نزلت قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر، وتبوك بعد الهجرة، مشيراً إلى أن ورود بعض الأحكام فيها؛ هو لقربها من الهجرة وبداية تكون نسيج المجتمع الإسلامي في جماعة المسلمين وقتها هو ما جعل بعضهم يظن أنها مدنية⁽⁴⁾.

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 256/6.

(2) سورة الإسراء، الآية: (76).

(3) ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى: (150/2): أن أخباراً وصلت النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن الروم جمعت جموعاً بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معهم لحم وخدام وعاملة وغسان، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء؛ فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يغزوهم قبل أن يغزوه، وقال جمع من المفسرين منهم ابن جرير الطبري في جامع البيان: 85/12، والبغوي في معالم التنزيل 113/4، والفخر الرازي في مفاتيح الغيب: 234/16، وابن الجوزي في زاد المسير: 518/3، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: 434/10، والأوسمي في روح المعاني: 50/11 قالوا: إن سببها: الاستجابة لفريضة الجهاد؛ ولذلك عزم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه بعد مشركي العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق؛ لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، سورة التوبة، الآية: (123)، قال في تفسيره: (271): "أمر الله -تعالى- المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً؛ فالأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وخيبر وحضر موت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر الأحياء في دين الله أفواجا؛ شرع في قتال أهل الكتاب؛ جهز لغزوة الروم الذين هم أقرب الناس بالدعوة إلى الإسلام".

(4) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 181/15.

ثالثا: الرد والاستبعاد:

وهو في نقله لتواريخ النزول يستبعد الدخيل؛ بل ويرد المقحم الذي لا يتفق وما ارتضاه من أسس وقواعد في اعتماده تفسيراً للنص، فمن أمثلة ما رده في تاريخ نزول الآيات ما جاء في سبب نزول قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1)، فقد روى أن السائل عبد الله بن رواحة، وروى أبو داود (2) عن ابن عباس أنها نزلت بعد نزول قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (3)، وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (4) تخرجوا؛ فعزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، فكل من عنده يتيم عزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه؛ حتى يأكله اليتيم ويشربه؛ وإلا فسد؛ فاشتد عليهم ذلك؛ فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾؛ إلا أن ابن عاشور استبعد نزولها بعد قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ من سورة النساء؛ لأن سورة النساء نزلت بعد سورة البقرة؛ منها على أنه وهم من الراوي؛ فقد جاء في تفسير ابن جرير الطبري بسنده إلى ابن عباس أنها نزلت بعد قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من سورة الإسراء (5) (6).

ومن أمثلة ما استبعده في تاريخ نزول الآيات ما جاء في سبب نزول قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا﴾ (7)، فقد روى عن ابن عباس وأصحابه أنها نزلت رداً على المنافقين؛ عندما رأوا النبي -صلى الله عليه

(1) سورة البقرة، الآية: (220).

(2) رواه أبو داود في سننه، كتاب: الوصايا، باب: مخالطة اليتيم في الطعام، حديث: (2502).

(3) سورة الإسراء، الآية: (34).

(4) سورة النساء، الآية: (10).

(5) جامع البيان، لابن جرير الطبري: 698/3.

(6) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 353/2.

(7) سورة النساء، الآية: (159).

وسلم- يصلي صلاة الغائب على النجاشي، فقالوا: يصلي على نصراني؛ ليس على دينه، ولم يره قط؟ لكن ابن عاشور- رحمه الله- استبعد هذه الرواية؛ لأن الآية من سورة النساء، وقد نزلت آل عمران في شأن غزوة أحد بعد وقوعها؛ ووفاة النجاشي كانت قبلها؛ قال: "ولعل وفاة النجاشي حصلت قبل غزوة أحد"⁽¹⁾.

ب- الاجتهاد والاستنباط:

إذا لم يجد ابن عاشور- رحمه الله- تواريخ نزول الآية في المصادر التي اعتمدها، أو كان ما اعتمده لا يشفي الغليل، ولم يجد فيه ما ينتخبه، ولا ما يجمعه ويوفق بينه، ورأى فيما توافر لديه من القرائن ما يدفعه إلى تجاوز حد التوقف؛ فإنه يعمن النظر، ويعمق البحث؛ حتى يستنبط تاريخ النزول؛ معتمدا على إشارات ودلالات في النص، أو قرائن حفت به، وارتبطت بمعانيه ومقاصده، ففي تفسير قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾⁽²⁾ نبه على أن هذه الآية تشير إلى غزوة من غزوات المسلمين، وأنه لم يرد في كلام السلف سبب لنزولها، واستبعد أن تكون غزوة بدر؛ لأنها نزلت بعدها، ولا أحد التي نزلت في شأنها سورة آل عمران، ولا الخندق؛ إذ لم يكن فيها غزو ولا نفير؛ لأن قوله: ﴿فَانفِرُوا﴾ يقتضي أنهم غازون لا مغزؤون، واستنبط أن تكون في فتح مكة؛ لأن سورة النساء نزلت سنة ست للهجرة، وكان الفتح في السنة الثامنة للهجرة، وذلك بالنظر في السياق التي وردت فيه الآية؛ إذ لحقها قوله -تعالى-: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ﴾⁽³⁾، وقوله -تعالى-: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾ مشيرا إلى أن لفظ الفتح أريد به فتح مكة في مواضع كثيرة⁽⁵⁾؛ فاستنباطه لهذا التاريخ ارتكز على قاعدتين في التفسير: الأولى: السياق، والثانية: المعهود من معاني القرآن الكريم واستعمالاته.

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 207/4.

(2) سورة النساء، الآية: (71).

(3) سورة النساء، الآية: (75).

(4) سورة النساء، الآية: (141).

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 117/5.

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (1) أشار إلى استدلال العلماء بهذه الآية على فرضية الحج؛ إذ لا يوجد دليل من القرآن الكريم على وجوبه غيرها؛ منها على أن حج النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل نزولها؛ إنما هو تقرب وتحنث، واستصحاب للحنيفية، وقد أشار إلى أن القرطبي ذكر الاختلاف في وقت فرضية الحج على ثلاثة أقوال: سنة خمس، وسبع، وتسع للهجرة (2)؛ إلا أن ابن عاشور استنبط أنه في السنة الثالثة للهجرة على الصحيح من تاريخ نزول هذه الآية (3).

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (4) نبه على أن الخشية في قوله: ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ هي توقعه -صلى الله عليه وسلم- أن يصدر من المشركين ما يكرهه، لا خشية تخوف؛ توجب ترك ما يكرهونه؛ لأنها تفضي إلى توهم أنه حصلت منه الخشية من الناس؛ فعرض به -سبحانه وتعالى- تصريحاً في قوله: ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (5) بعد أن عرض به تلميحاً في قوله: ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾؛ وإنما لم يكثر بهم وتزوج زينب -رضي الله عنها- والدليل أن كل هذا حصل قبل نزول الآيات، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ بصيغة الماضي؛ الدالة على الماضي؛ التي عينت أن الآيات نزلت بعد زواجه -صلى الله عليه وسلم- بأمة المؤمنين زينب -رضي الله عنها-، واعتمد في استنباط تأخر نزول الآيات عن زواجه -صلى الله عليه وسلم- من زينب -رضي الله عنها- على اللحاق من سياق الآية (6).

(1) سورة آل عمران، الآية: (97).

(2) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 217/5.

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 21/4.

(4) سورة الأحزاب، الآية: (37).

(5) سورة الأحزاب، الآية: (39).

(6) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 43/22.

(3)- وأما توظيفه تاريخ النزول في كشف المعنى وفهم المراد:

فإن هدف المفسر وغايته ومقصده من استقصاء البحث في أي علم من العلوم سواء كانت هذه العلوم أساسية يستمد منها التفسير؛ أو كانت علوما مساندة، هدفه توظيف نتائج هذا البحث في كشف المعنى، وفهم المراد، وابن عاشور -رحمه الله- في استقصاءه البحث في تاريخ النزول والظروف التي قارنته يوظف ما استقر عليه فكره، وخلص إليه تدبره في فهم جوانب متعددة وعلوم متنوعة كلها متعلقة ومرتبطة بالنص؛ توصله إلى كشف المعنى، وإيضاح الدلالات، وفهم الغاية والمراد، ومن هذه الجوانب والعلوم التي وُظف تاريخ النزول في معرفتها لبيان معنى النص وفهم مراده ما يلي:

أ- توظيف تاريخ النزول في معرفة سبب النزول:

لا يخفى على الباحث في التفسير أهمية سبب النزول في فهم النص؛ حتى إن من النصوص ما لا يمكن فهمه فهما صحيحا إلا بالرجوع إلى سبب نزوله، وإذا كان سبب النزول عند المفسرين ضابطا في فهم المراد، واستبعاد التأويلات البعيدة والدخيلة، ودب التأويلات المنحرفة والباطلة؛ فإن معرفة تاريخ النزول لدى المحققين منهم؛ ضابط في استبعاد ودب الروايات الضعيفة والباطلة والموضوعة في أسباب النزول، واستبعاد ما لا يناسب الآيات منها، ولقد برع ابن عاشور -رحمه الله- في هذا الجانب، وقام بتوظيف تاريخ النزول في استبعاد ودب الروايات الدخيلة والموضوعة التي لا تناسب الآيات وسياقاتها، أو التي لا تنسجم مع موضوعها وأغراضها، أو تلك التي تتنافر ولا تأتلف مع المقاصد والأصول، فكثيرا ما اعتمد ابن عاشور -رحمه الله- على تاريخ نزول الآيات في استبعاد الروايات الواردة في سبب النزول، وبيان وهنها وبطلانها؛ ذلك أنها لا تتناسب مع الظروف والحوادث التي قارنت نزول النص وأغراضه ومقاصده، ففي تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾⁽¹⁾ نبه على أن نعمة العصمة التي أنعمها الله -سبحانه وتعالى- على نبيه -صلى الله عليه وسلم- تكرر الوعد بها في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ بل إن الآثار أشارت إلى أنه أخبر بها وهو في مكة قبل الهجرة، وعرض روايتين في سبب نزولها: الأولى عن عائشة -رضي الله عنها- أنها نزلت بالمدينة،

(1) سورة المائدة، الآية: (67).

وأنه -صلى الله عليه وسلم- قال لسعد بن أبي وقاص وحذيفة -رضي الله عنهما-: "إلحقوا بملاحقكم؛ فإن الله عصمني"⁽¹⁾، والرواية الثانية: أنها نزلت في غزوة ذات الرقاع سنة ست للهجرة في عورت بن الحارث؛ حين وجد النبي -صلى الله عليه وسلم- نائماً في ظل شجرة وسيفه معلق؛ فاخترطه، وقال من يمنعك مني؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "الله"؛ فسقط السيف من يديه⁽²⁾، وقد نبه ابن عاشور -رحمه الله- إلى أن الحادئين وقعتا قبل نزول الآية، وأن الذين جعلوا من الروايتين سبباً لنزول الآية؛ قد خلطوا، وأن هذه الآية تثبت لوعد العصمة وإدامته، وأنه لا يتغير بتغير صنف الأعداء⁽³⁾.

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَا﴾⁽⁴⁾ نبه -رحمه الله- على أن ما يروى عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من أن المشار إليهم في هذه الآية؛ هم الأجران: بنو أمية، وبنو المغيرة⁽⁵⁾؛ هو من وضع المغرضين المعادين لبني أمية، وأن ما روي عن ابن عباس أنها نزلت في جبلة بن الأيهم، ومن تبعه ممن تنصروا زمن عمر، وحلوا ببلاد الروم⁽⁶⁾ هم من باب التمثيل والتنظير؛ إذ لا يصح أن يكون مراده سبباً لنزول الآية؛ وقد حدث في خلافة عمر -رضي الله عنه-⁽⁷⁾.

(1) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة، ذكر حرس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديث: (600)، وفي المستدرک على الصحيحين للحاكم، كتاب: التفسير، تفسير سورة المائدة، حديث: (3154)، وفي سنن الترمذي، الجامع الصحيح، الذبائح، أبواب: تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ومن سورة المائدة، حديث: (3055)، بلفظ: "أيها الناس، انصرفوا؛ فقد عصمني الله".

(2) روى الحادثة البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع، حديث: (3921).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 264/6.

(4) سورة إبراهيم، الآية: (28).

(5) رواه الحاكم في مستدرکه على الصحيحين، كتاب: التفسير، تفسير سورة إبراهيم -عليه السلام- حديث: (3276)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه".

(6) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان في تفسير القرآن -سورة إبراهيم- القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا﴾، حديث: (18963).

(7) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 230/13.

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (1) أشار إلى أن فريقاً من العلماء قالوا إنها نزلت في قتال بدر، واستبعد ابن عاشور هذا؛ مؤكداً قول الجمهور إنها نزلت بعد غزوة بدر؛ وذلك لأن سورة الأنفال نزلت بسبب الخلاف في أنفال الجيش عند قسمة غنائم بدر، ولو صح نزولها فيها؛ للزم أن تكون قد نزلت قبل سورة الأنفال؛ ثم ألحقت بها، وهذا لم يقل به أحد (2).

ومن أمثلة ما اختاره سبباً لنزول الآيات؛ لتوافقه وانسجامه وتاريخ النزول؛ ما روي في سبب نزول قوله -تعالى-: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (3)، فقد ذكر أنه روي عن ابن عباس أنها نزلت في قصة أبي الدحداح -رضي الله عنه-؛ حين سمع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- طلب من منافق أن يتصدق بنخلة لأيتام يسكنون بجواره، وكان يقع ثمرها في أرضهم فيفتكها من أيديهم؛ فأبى المنافق؛ فاشترى أبو الدحداح -رضي الله عنه- النخلة من المنافق بحائط، وتصدق بها على الأيتام؛ ونبه ابن عاشور -رحمه الله- على أن هذه الرواية لا تصح أن تكون سبباً لنزولها؛ لأن السورة مكية، وقصة أبي الدحداح بالمدينة؛ مرجحاً أن يكون سبب نزولها في أبي بكر -رضي الله عنه- عندما أعتق بلالاً؛ فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده؛ فكذبهم الله -عز وجل- بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (4).

لكنه مع دقته في بحثه العميق المتقضي، وتحيصه الشامل في تناسب الحوادث والوقائع مع تاريخ النزول؛ أورد روايات لا تصح في أسباب نزول بعض الآيات، بل إن القرائن دلت على تباعد واقتراق تواريخها مع تاريخ نزول الآيات؛ ففي تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (5)، أشار إلى اختلاف العلماء في الإسراء بالنبي -صلى الله

(1) سورة الأنفال، الآية: (15).

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 288/9.

(3) سورة الليل، الآيتان: (19، 20).

(4) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 391/30.

(5) سورة الإسراء، الآية: (1).

عليه وسلم- هل كان بالجسد، أو بالروح؛ قال: "وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق -رضي الله عنهم- إنه إسرائ بالروح في المنام، ورؤيا الأنبياء حتى" (1)، وقوله: "وقالت عائشة" يعني أم المؤمنين -رضي الله عنها-، وعني به ما روي عنها أنها قالت: "ما فقدت جسد رسول الله؛ ولكن أُسري بروحه" (2)، ولو تأمل قليلا في تاريخ نزول سورة الإسرائ، وتاريخ بناء النبي -صلى الله عليه وسلم- بعائشة -رضي الله عنها-؛ لانكشف له زيف واقتراء هذه الرواية التي ألصقت زورا بأُم المؤمنين -رضي الله عنها-؛ إذ حادثة الإسرائ وسورة الإسرائ مكية؛ وبنائه -صلى الله عليه وسلم- بأُم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- كان بالمدينة؛ قال ابن عبد البر -رحمه الله-: "وإنكار عائشة الإسرائ بجسده: لا يصح عنها، ولا يثبت قولها: "ما فقدت جسد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولكن أُسري بروحه"، وقد قال بعضهم عنها: "ما فقد جسد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تلك الليلة" وهذا من الكذب الواضح؛ لأن عائشة لم تكن وقت الإسرائ معه، وإنما ضمها بعد ذلك بسنين كثيرة بالمدينة" (3).

2-توظيف تاريخ النزول في بيان المناسبة والتناسق:

قد يخفى تناسب الآيات والسياقات، ولا يظهر تلاحمها واتساقها؛ إلا بمعرفة تاريخ نزولها، والقرائن التي حفته، والأحداث التي اكتنفته؛ ولقد اعتنى ابن عاشور -رحمه الله- ببيان المناسبة بين الآيات، واتساق السياقات عناية بالغة؛ حتى كانت سمة من سمات تفسيره البارزة؛ فقد وظف علوما شتى في الكشف عنها؛ مبرزا من خلالها جمال النظم في النص القرآني وإعجازه، ومن العلوم التي وظفها لكشفه وإظهاره علم تاريخ النزول؛ ففي بيان المناسبة بين سياق خلق قصة آدم -عليه السلام- في قوله -تعالى-: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ (4)، من سورة "ص" وما قبلها من الآيات، بين أن القصة

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 15/23.

(2) السيرة النبوية لابن هشام: 46/2، وابن جرير الطبري في جامع البيان: 445/14، والقاضي عياض في الشفا: 147/1، قال الألباني -رحمه الله- في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية ص: (223): "لم يصح ذلك عنهما؛ فهو في غنية عن التأويل".

(3) الأجوبة المستوعبة عن المسائل المستغربة، لابن عبد البر، ص: (134،135).

(4) سورة ص، الآية: (71).

جاءت بعد التوطئة لها في قوله -تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾⁽¹⁾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾⁽²⁾، هذه التوطئة خصتها بعناية واهتمام خلت منها المواضع الأخرى من القرآن الكريم، التي جاءت فيها القصة؛ وذلك لأن هذه السورة "ص" مكية، وهي من أول ما نزل من القرآن الكريم، ولم يسبق ذكر للقصة قبل هذا الموضع⁽³⁾.

كما وظف -رحمه الله- علم تاريخ النزول في الكشف عن تناسق السور في ترتيبها التوقيفي؛ ففي بيان اتساق تتابع سورتي الليل والضحى في ترتيب المصحف أشار إلى أن الترتيب في القسم الوارد في مطلع سورة الليل؛ جاء خلافا لسورة الضحى؛ فابتدأ في سورة الليل بالقسم بالليل والظلمة في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾⁽⁴⁾؛ ثم أردفه بالنهار والنور في قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾⁽⁵⁾. أما في سورة الضحى فابتدأ بالنهار في قوله: ﴿وَالضُّحَى﴾⁽⁶⁾؛ وذلك لأن سورة الليل من أوائل السور المكية نزولاً؛ فهي السادسة في عد النزول، وحينها كان الكفر مخيماً على الناس؛ إلا نفر قليل؛ فناسب أن يكون القسم بالليل ثم الردف بتجلي نور النهار؛ وعدا منه -سبحانه وتعالى- بالتمكين والنصرة لدينه⁽⁷⁾.

3- توظيف تاريخ النزول في نقد الروايات:

ليس المقصود بها الروايات في سبب النزول؛ بل هي أعم؛ فتشملها ويدخل فيها الروايات في غيرها؛ إذ سبق الحديث عن روايات سبب النزول، ولقد كان ابن عاشور يفيض البحث في الروايات المتعلقة بالنص؛ فيستقصي وجوها وطرقها؛ ويتأمل أقوال العلماء فيها؛ ويحصها ويدقق فيها سندا ومتنا؛ فيرحم ويختار، وينتقد ويرد؛ وفق ضوابط اعتمدها معيارا للحكم عليها؛ منتخبا الأجود المتوافق مع النص، ومستبعدا الدخيل المخالف للأحكام،

(1) سورة ص، الآية: (67).

(2) سورة ص، الآية: (69).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 297/23.

(4) سورة الليل، الآية: (1).

(5) سورة الليل، الآية: (2).

(6) سورة الضحى، الآية: (1).

(7) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 378/30.

والمصادم للأصول والمقاصد؛ موظفا كل ذلك في الكشف عن المعنى وفهم المراد، ومن هذه الضوابط التي اعتمدها معيارا في الحكم؛ تاريخ النزول؛ ففي تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ﴾⁽¹⁾ بين أنه جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "مطرنا في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزلت: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ﴾⁽²⁾؛⁽³⁾ منها على أن قوله "فنزلت" في رواية ابن عباس؛ زيادة على حديث زيد بن خالد الجهني⁽⁴⁾، وأن العلماء اختلفوا في قبولها؛ بشرط ومن دون شرط أو بشرط اتحاد المجلس، وشرط ألا يكون ممن لا يغفل مثله عن تلك الزيادة عادة؛ منها على أن السورة مكية، وأن ابن عباس لم يكن من أهل الرواية عند نزولها؛ معللا الزيادة بأنها وهم من الراوي؛ أو أنه لم يحسن التعبير، بأن تكون من تأويل ابن عباس؛ لا من نقله؛ وأنه تلا الآية بعد الحديث؛ فتوهم أنها نزلت فيها؛ مشيرا إلى تكرار مثل هذا في أخبار أسباب النزول⁽⁵⁾.

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾⁽⁶⁾ نبه -رحمه الله- على أن ما روي في أنها نزلت في علي وفاطمة -رضي الله عنهما- وإيثار إطعام المسكين واليتيم والأسير على نفسيهما وولديهما أخبار موضوعة⁽⁷⁾؛ مبينا أنه لا يصح حمله على أسرى المشركين؛ لأن السورة مكية قبل عزة المسلمين؛ ملحا إلى استبعاد أن تكون نزلت في معاملة الصحابة -رضوان الله عليهم- لأسرى بدر⁽⁸⁾؛ ومحققا أن الأسير هنا هو

(1) سورة الواقعة، الآية: (82).

(2) سورة الواقعة، من الآية: (75-82).

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، حديث: (132).

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، حديث: (129).

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 340/27.

(6) سورة الإنسان، الآية: (8).

(7) قال الشيخ محمد أبو شبة في الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص: (328): "وقد نبه علي وضعه الحكيم الترمذي والحافظ ابن الجوزي وابن حجر في التخریج، قال آثار الوضع لأئحة عليه لفظا ومعنى؛ فبناء سيدنا علي بالسيدة فاطمة كان بالمدينة في السنة الثانية والسورة مكية".

(8) قال ابن كثير: "قال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر أصحابه أن يكرموا يوم بدر الأسارى. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 210/14.

العبد من المسلمين؛ إذ كان المشركون قد أجاجوا عبيدهم الذين أسلموا بكلال وعمار - رضي الله عنهما-(1).

4- توظيف تاريخ النزول في معرفة المجمل والمبين:

البيان هو التوضيح، وإخراج الشيء من حيز الإشكال، فما كان ظاهراً بنفسه من غير سبق إجمال أو إشكال لا يسمى بياناً، فتأخر البيان عن الإجمال شرط في معرفته وتعيينه؛ ولقد اعتمد ابن عاشور على هذا المفهوم في الفصل بين البيان والإجمال، وبين العموم والخصوص، وبين الإطلاق والتقييد، ففي تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (2)، نبه على أن هذه الآية نزلت بعد آية فرض الحج في قوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (3)، من سورة آل عمران؛ وذلك لأن الآية الأولى في سورة البقرة بيان لأعمال الحج المجمل في آية فرضه من آل عمران، مشيراً إلى أن تأخر البيان لوقت الحاجة واقع غير مرة، وأن هذه الآية نزلت سنة تسع للهجرة؛ تهيئة لحج المسلمين مع أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (4).

وقد يحتج به في استبعاد الآراء والأقوال الدخيلة في تعيين البيان؛ ففي تعيين بيان المجمل في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (5)، نبه على أنه لا يصح أن يكون بيانه ما جاء في آخر السورة في قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (6)، لأن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، ولا يصح أن يكون قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 384/29، 385.

(2) سورة البقرة، الآية: (197).

(3) سورة آل عمران، الآية: (97).

(4) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 231/2.

(5) سورة الأنعام، الآية: (119).

(6) سورة الأنعام، الآية: (145).

وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ ﴿١﴾ من سورة المائدة؛ لأنها مدينة والأنعام مكية؛ فلا يجوز أن يكون المقصود؛ لأن ظاهر قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ يشير إلى أنه قد نزل؛ قال: "ولعله بوحى غير القرآن" (2).

5- توظيف علم تاريخ النزول في تعيين النسخ والمنسوخ:

النسخ في القرآن الكريم هو إزالة ما استقر من الحكم الشرعي بخطاب ورد متراخياً، ولولاه كان السابق ثابتاً؛ فيسمى الأول منسوخاً، والثاني المتراخي ناسخاً، ولا سبيل للفصل بينهما؛ إلا بمعرفة تاريخ النزول الذي يبين تأخر النسخ عن المنسوخ، ولقد أولى ابن عاشور هذا الجانب عناية بالغة؛ لما يترتب عليه من تطور في المعاني والأحكام؛ فكلما تعرض لمبحث من مباحث النسخ استعان بتاريخ النزول لبيان أركانه؛ ففي بيان أن قوله -تعالى-: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (3) ناسخ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (4) نبه على أنه نزل بعده بمدة طويلة؛ مرجحاً أن يكون نزل بعد اكتمال نزول سورة الأنفال، ووضعت الآية هنا؛ لأنها نزلت مفردة غير متصلة بآيات السور الأخرى؛ فجعل لها هذا الموضع؛ لأنه الأنسب؛ لكنه رجع أن يكون نزولها قبل فتح مكة؛ قال: "والوقت المستحضر بقوله: ﴿الآن﴾ هو زمن نزولها، وهو الوقت الذي علم الله -سبحانه وتعالى- عنده انتهاء الحاجة في ثبات الواحد من المسلمين أمام العشرة من المشركين" (5).

(1) سورة المائدة، الآية: (3).

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 34/8.

(3) سورة الأنفال، الآية: (66).

(4) سورة الأنفال، الآية: (65).

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 69/10.

6- توظيف تاريخ النزول في إثبات الإعجاز الغيبي والعلمي في القرآن الكريم:

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم دالة على أنه وحي من الله - سبحانه وتعالى-، والبحث فيها وفقهها وإثباتها ثم بيانها طريق للدعوة إلى الله، ونشر دينه، ومن فضله - سبحانه وتعالى- أن جعل معجزة القرآن خالدة أبد الدهر؛ دالة على علو مصدره، وصدق من جاء به؛ مرشدة للفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، ولو تأملنا بعض هذه الوجوه؛ لوجدنا أن ما يكشف عن الإعجاز فيها هو تقدم نزول آياتها على الوقائع والحقائق، ومن هذه الوجوه: "الإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي"، فقد اعتنى ابن عاشور -رحمه الله- بإثبات تاريخ نزول الآيات المتعلقة بهذين الوجهين عناية بالغة؛ فكلمها مر بآية فيها إعجاز غيبي أو علمي وقف عندها منها ومشيرا إلى أنها نزلت قبل الحادثة؛ أو قبل اكتشاف العقل البشري للحقيقة العلمية؛ مينا أنها من دلائل صدقه -صلى الله عليه وسلم-، ففي إثبات الإعجاز الغيبي المستقبل بين عند تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (1) إلى أن الآية نزلت في آخر حياته -صلى الله عليه وسلم-؛ منها على أنها إيماء إلى ما سيكون من ارتداد العرب عن الإسلام، وصدق وعده -سبحانه وتعالى- في نصرته الإسلام وأهله (2).

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ (3) من سورة الأنعام؛ نبه على أنها إخبار بالغيب المستقبل الذي تحقق؛ فنزل بعدها في سورة النحل في قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (4) (5).

(1) سورة المائدة، الآية: (54)

(2) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 235/6.

(3) سورة الأنعام، الآية: (148)

(4) سورة النحل، الآية: (35)

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 146/8.

وفي إثبات الإعجاز العلمي؛ بين عند تفسير قوله -تعالى-: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾⁽¹⁾، أن الصلب هو العمود الفقري، والترائب هو ما بين الترقوتين والقفص الصدري؛ وهو للرجل والمرأة؛ إلا أنه الأشهر للمرأة، فجعل ماء الرجل يتكون فيهما، وهو مخاطبة للناس بما يعرفون يومئذ، مبينا أن ما توصل إليه العلم الحديث موافق لما جاء في القرآن من أن خلق الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة، ومشيرا إلى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بقوله: "وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علم به للذين نزل بينهم" معقبا أن ما جاء في الآية إشارة مجملّة؛ بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن احتلام المرأة؛ فقال: تغتسل إذا أبصرت الماء؛ فقيل له: أتري المرأة ذلك؛ فقال: وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك؛ إذا علا ماء المرأة ماء الرجل؛ أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها؛ أشبه أعمامه"⁽²⁾(3).

7- توظيف تاريخ النزول في معرفة اسم السورة:

هي من لطائف تفسيره -رحمه الله-؛ ولعله تميز بها وانفرد عن غيره من المفسرين؛ فكثيرا ما أشار إلى أن اختصاص السورة بالاسم الاصطلاحي؛ مع اشتراكها مع غيرها في السياقات والأغراض والمقاصد والألفاظ الدالة على الاسم هو تقدمها في النزول، فقد نبه على أن اختصاص سورة الأنبياء باسمها؛ لا لذكر أسماء ستة عشر نبيا -عليهم السلام- فيها؛ فإن سورة الأنعام ذكر فيها أكثر من هذا العدد؛ فقد جاء فيها ذكر ثمانية عشر نبيا⁽⁴⁾؛ منها على أن اختصاصها بالاسم إما لسبق النزول، أو لاشتمال سورة الأنعام على أحكام الأنعام⁽⁵⁾، كما نبه على أن سورة القصص اختصت بالاسم لورود اللفظ فيها؛ في قوله -

(1) سورة الطارق، الآيات: (5، 6، 7).

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، حديث: (498).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 263/30.

(4) جاء في سورة الأنعام قوله -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَرِزْقِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّن الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنعام، الآيات: (83، 84، 85).

(5) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 5/17.

تعالى:- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾⁽¹⁾ مع ورووده في سورة يوسف في قوله: ﴿لَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾⁽²⁾ لتقدمها عليها في النزول⁽³⁾، لكنه غفل عن هذا الضابط في اختصاص سورة يونس باسمها؛ فقد نبه على أنها سميت بالاسم؛ لا لورود آية فيها في قوم يونس -عليه السلام-⁽⁴⁾؛ فقد جاءت في سورة الصفات أكثر تفصيلاً؛ في عشر آيات كريمة⁽⁵⁾؛ وإنما تميزا لها عن أخواتها المفتحة بـ(ألـ)⁽⁶⁾؛ مع أن نزول سورة يونس سابق لسورة الصفات، ولعله سبب آخر لاختصاصها بهذا الاسم.

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد، فهذه بعض النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، وقد أردفت ذلك بروتي وتوصيات:

- 1- علوم القرآن الكريم متنوعة ومتعددة؛ وفي كل عصر يختص -سبحانه وتعالى-؛ فيرفع طائفة من عباده بالدرجات العلا، في الدنيا والآخرة؛ فييسر لهم تدبر معانيه، وكشف أسرارها، وتنقيح علومه.
- 2- علم تاريخ النزول؛ أحد طرق التدبر في القرآن الكريم، وهو معين على فهم معانيه، وله أثر كبير وبالغ في الاستدلال على علوم القرآن الكريم، واستنباطها.

(1) سورة القصص، الآية: (25).

(2) سورة يوسف، الآية: (3).

(3) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 61/20.

(4) جاءت قصة يونس -عليه السلام- في سورة يونس في قوله -تعالى-: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ سورة يونس، الآية: (98).

(5) جاءت قصة يونس -عليه السلام- في سورة الصفات في قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ فَبَدَأَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ وَارْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِثَّةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ فَاْمَنُوا فَتَعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ سورة الصفات، الآيات: (139-146).

(6) التحرير والتنوير، لابن عاشور: 77/11.

3- على الباحث في أي علم من العلوم أن يرسم منها يسير عليه في بحثه؛ يركز على أسس منضبطة بقواعد الشرع صونا من الخطأ، والتقول على الله، ووقاية من الزلل والوقوع في التأويلات البعيدة المنحرفة عن المحجة البيضاء والجادة السوية.

4- الاجتهاد في الاستنباط؛ يركز على استقصاء البحث في المسائل محل الدراسة، وتعميقه، وسبر الأقوال والآراء فيها، ومقارنتها، وتحليلها، وهذا لا يتأتى إلا بالناية في انتخاب المصادر، والدقة والضبط في النقل عنها، وتحليله، وتوظيفه فيما يخدم المسألة.

5- انفرد ابن عاشور -رحمه الله- بالإشارة إلى علوم متنوعة لخدمة التفسير، والبحث فيها؛ لم يسبق إليها؛ كتاريخ النزول، ومبتكرات القرآن، وعاداته، واصلاحاته، وعرفه، ومراتب المجاز فيه؛ جعله يتميز بمنهج في تفسير كلام الله وفهم مراده.

6- لا يزال حظ علم تاريخ النزول من اهتمام الباحثين والمهتمين السابقين والمعاصرين قليلا؛ ونصيبه من الدراسات والبحوث يسيرا؛ فاللهم وفق طلبة العلم إلى الإقبال إليه وإلى غيره من العلوم النافعة، والانكباب على دراستها والبحث فيها والتأليف، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- 1-الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، ط: 1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة -المملكة العربية السعودية.
- 2-أسباب نزول القرآن، للواحدي، تحقيق: كمال بسيوني، ط: 1، 1411هـ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- 3-البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 3، 1404هـ، مكتبة دار التراث، القاهرة -مصر.
- 4-التحرير والتنوير، لابن عاشور، ط ، 1984م، الدار التونسية للنشر، تونس.
- 5-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: 1، 1422هـ، القاهرة -مصر.
- 6-تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ط: 2، 1366هـ، دار المنار، القاهرة-مصر.
- 7-صحيح البخاري، عناية محمد زهير بن ناصر، ط:1، 1422هـ، دار طوق النجاة، بيروت-لبنان .
- 8-صحيح مسلم وفي طليعته غاية الابتهاج، للزيدي، ط:1، 1427هـ، 2006م، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية -الرياض .